

المحور الثّاني
نظرية الأدب الكلاسيكيّة عند اليونان
(نظرية المُحاكاة)

المحور الثّاني
نظرية الأدب الكلاسيكيّة عند اليونان
(نظرية المُحاكاة)

نظرية المحاكاة عند أفلاطون

أولاً- نظرية المحاكاة عند أفلاطون

1- السياق التاريخي للنظرية:

2- المبادئ (المفاهيم)

- طبيعة الشعر

- أصل الشعر

- وظيفة الشعر

3- المرجعية الفلسفية ومذهب الفن الأخلاقي

1- السياق التاريخي للنظرية:

تعدّ نظرية المحاكاة أقدم نظرية أدبية وقد نشأت من رحم الفكر الفلسفي اليوناني، على يد الفيلسوف أفلاطون وتلميذه أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد. وكانت البداية التاريخية مع أفلاطون (427-347 ق.م). والواقع أنه لم يخصص "كتاباً مستقلاً في قضايا الأدب ولكنها آراء متفرقة تأتي عرضاً في مواطن متعددة من كتاباته، إلا أنه خصص فصلاً في كتابه (الجمهورية) هو الكتاب العاشر المعنون : **المحاكاة في الفن والشعر** من خلال الحوار الذي يجريه على لسان سقراط وجلوكون (ينظر الجمهورية، ص)

2- المبادئ النظرية / موقف أفلاطون من الشعر / مفهوم الشعر عند أفلاطون:

(أ) طبيعة الشعر:

عني أفلاطون بشرح طبيعة الشعر بوصفه ظاهرة فنية، وهو من وجهة نظره: الشعر في جوهره محاكاة للمحاكاة، أو تقليد، فالفنّ بالمعنى العام والشعر بوجه خاص، قائم على التقليد، ويوضح أفلاطون هذه الفكرة من خلال المثال التالي:

- الله خلق جوهر الشيء وهو المعنى الذهني (فكرة السرير مثلا) وهي الحقيقة المطلقة الخالصة التي توجد في عالم المثل،
- والصّانع أو النّجار يحاول أن يحاكي تلك الفكرة، دون أن يحقق التّطابق الكامل بين عمله وبين الجوهر، فيكون عمل النّجار ناقصا،
- ثمّ يأتي الشّاعر فيحاكي ما قام به الصّانع (النّجار)، فيصبح عمله محاكاة للمحاكاة، فيبتعد عن الحقيقة بدرجتين
- ومن هنا يحدد أفلاطون طبيعة الشعر (الفن) في النقاط التالية:
- عمل الشاعر يشبه عمل المرأة أو المصوّر فهي محاكاة آليّة فوتوغرافيّة
- يقدّم الشاعر صور مزيفة عن الحقائق لا حاجة لنا بها (ما نحتاجه وينفعنا هو الأصل وليس الصورة)،
- وخلاصة القول: الشعر هو "تمثيل معطيات الحواس والتي هي في حدّ ذاتها صورة ممسوخة للحقيقة وبعيدة عنها بثلاث درجات" (شكري عزيز الماضي، ص 19) وهو ما يعني أن الشاعر غير صادق فيما يقول.
- ورغم انتقاصه من قيمة التقليد والمحاكاة في الشعر إلا أنه -في ذات الوقت- لا يؤيد فكرة تحوير الواقع لأنه دليل عدم صدق أيضا.

(ب) أصل الشّعر:

هل عني أفلاطون بتوضيح أصل الشعر ومصدره؟

- يوضح أفلاطون نشأة الشعر ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:
- نشوة الوحي والإلهام فالله أو ربّة الشّعر تُلهم الشّاعر والشّاعر يُلهم تُرجمانه ومن خلاله يمرّ التيار المغناطيسي إلى الجمهور (شكري عزيز الماضي ص)
- غياب العقل: الإلهام يثبت لنا أن الشّاعر ينطق الشعر وهو في حال الجنون وغياب الوعي، لا في حال العقل، ولولا غيبة العقل ما كان باستطاعته أن يبدع شعرا: "إنه مخلوق خفيف محلق لا يخترع شيئا حتى يوحى إليه، فتتعلّط حواسّه ويطير عنه عقله فإذا لم يصل إلى هذه الحالة فإنّه لا حول ولا طول ولا يستطيع أن ينطق الشّعر" (شكري عزيز الماضي، ص 20)

- **العواطف والأهواء** : غياب العقل يعني استغراق الشاعر في الحالة الانفعالية والعاطفية ما يجعله ضعيفا ويتبع هوى النفس فيما ينطقه من شعر...

ج/ وظيفة الشعر:

هل عني أفلاطون بالنظر في مشكلة وظيفة الشعر؟

لقد عني أفلاطون عناية شديدة بتوضيح وظيفة الشعر ودور الشعراء في الجمهورية وتحليل أثر الشعر في سلوك المواطنين بل تعد هذه القضية من أهم القضايا الفلسفية في نظرية الشعر ونلخص توضيحاته لوظيفة الشعر انطلاقا من ملاحظاته التي دونها على شعراء عصره ونصوص الشعر اليوناني المعاصر له وتتلخص في النقاط التالية:

- الشعراء يخاطبون العاطفة ويتكلمون انطلاقا من انفعالاتهم
- الشاعر لا يقدم المعرفة ولا العلم ولا يملك معلومات عن الموضوع المحاكى ويصور المحسوس الجزئي الوهمي الزائل بدلا من تصوير الحقيقة "الشاعر بعيد تماما عن استخدام العقل وبالتالي بعيد عن الحقيقة" (شكري عزيز الماضي ص 9)
- ولذلك يعمل الشعر على تأجيح عواطف الناس وإلهابها، ويُبعدهم عن استخدام العقل ويجعلهم أكثر عرضة للاستسلام للعواطف
- وهو ما يسميه أفلاطون (فتنة الشعر)، فهو يسهم في غلبة الهوى وتزيين الباطل، وتزييف الحقيقة من خلال العواطف، فيخرج بالإنسان عن رشده العقلي وحكمته ويدعوه إلى فساد الأخلاق.

ويقترح أفلاطون نظريته البديلة حول وظيفة الشعر بوصفه (أخلاقيا) ونلخصها في:

- تتحدد قيمة الفن (الشعر) بمقدار ما يؤدي دورا في معرفة الحقيقة والدعوة إليها.
- المعرفة طريقها العقل وليس العاطفة وانفعالاتها "الأشياء التي تمثلها الفنون حقائق جوهرية يدركها العقل" (شكري عزيز الماضي ص 9)
- يُفترض أن تكون مهمة الشعر هي (تجفيف العواطف) بدلا من إلهابها ...

3- المرجعية الفلسفية ومذهب الفن الأخلاقي

أ) العقلانية المثالية مرجعا فلسفيا:

ينتمي أفلاطون إلى اتجاه الفلسفة المثالية العقلانية، ويشرح لنا موقفه الفلسفي من حقيقة الوجود من منطلق مثالي عقلائي (شكري عزيز الماضي ص 14). من هذا المنظور ينقسم الوجود إلى قسمين:

- العالم الماديّ والعالم المثاليّ أو الواقع والمثال
- الواقع هو الواقع الطبيعي والبشري
- عالم المثل لحقائق والجواهر المثل موجودة في عالم المثل
- أصل الإنسان هو انتمائه الأزلي إلى عالم المثل الحقائق الكاملة
- غاية الإنسان معرفة الحقيقة
- طريق المعرفة بالحقيقة هو العقل
- معرفة الحقيقة هي الغاية الأسمى في الوجود عند أفلاطون
- الفلاسفة والحكماء يملكون الحقيقة أما الشعراء لا يملكون الحقيقة المطلقة بل يسهمون في تزييفها.

2- مذهب الفن الأخلاقي:

في سياق الفلسفة (المثالية العقلانية) عند أفلاطون ظهرت معضلة الصراع بين الشعر والفلسفة، ومعضلة الفن بين المتعة الخالصة و الأخلاق (المنفعة)، فكان أول من نادى بالفن الأخلاقي الملتزم والهادف وأدان الشعر والشعراء باسم الأخلاق والحقيقة إيماناً منه بمدى خطورة دور الشعر وتأثير الفن والأدب على سلوك المواطنين (فقد اعتبر هذا التأثير غير صالح وغير خير، بشكل دائم، لذلك اهتم بطرد الشعراء من جمهوريته أو على الأقل بضبط أعمالهم ومراقبتها" (ص22)

من هنا صدر حكمه على الشعراء بالنفي من الجمهورية الفاضلة، و أجاز بعض الشعراء بشروط :

- أن تكون من صنف القصائد الدينية والملاحم

- تفضيل فن (الملحمة) على (التراجيديا) لأن الملحمة تثير عاطفة الإعجاب بالبطل وحماسة الروح الثورية، أما التراجيديا فتثير عاطفة الخوف والشفقة، وتعزز حالة الضعف النفسي.

ملاحظة:

- الملحمة:

القصة الشعرية أو الشعر القصصي التاريخي، يسرد بطولات الحروب الأسطورية الكبرى.

- التراجيديا:

أو المأساة وهي شكل من أشكال الدراما، أي التمثيل المسرحي، وهي ذات طابع مأساوي.

نظرية المحاكاة عند أرسطو طاليس (384 ق م - 322 ق م)

1- السياق التاريخي

2- المبادئ (المفاهيم)

أ) طبيعة الشعر

ب) أصل الشعر

ج) وظيفة الشعر

3- المرجعية الفلسفية ومذهب الفن الواقعي المثالي

1- السياق التاريخي:

إذا كان أفلاطون أول من دَوّن نظرات فلسفية حول ماهية الفن والشعر، حيث تضمّن كتابه أقدم مبحث فلسفي في هذا الشأن، فإنّ تلميذه أرسطو يعدّ في نظر المؤرخين واضع أول كتاب منهجيّ في تاريخ النظرية والنقد والموسوم: (فن الشعر) والذي حظي بمكانة علمية منذ ذلك الحين ومثل معيارا للأدب ونقده. كما هيمن على الحياة النقدية والأدبية في أوروبا وإنجلترا خلال العصر الكلاسيكي ليتواصل أثره على النقد والأدب الغربي - والعربي أيضا- إلى يومنا. حيث أقبل النقاد العرب على ترجمته إلى اللغة العربية منذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحديث وحظي بترجمات عديدة

صحيح أن أفلاطون قد عرف بنظرية المحاكاة، إلا أنّ هذه النظرية عرفت تطورا على يد تلميذه أرسطو وعليه فإنّ (نظرية المحاكاة قد ارتبطت بأرسطو أكثر من ارتباطها بأفلاطون وذلك لأهمية المبادئ التي أرساها أرسطو في كتابه (الشعر)) (شكري ص24)

يختلف موقف أرسطو عن موقف أستاذه أفلاطون. وهذا الاختلاف النظري ناجم عن اختلاف المنهج في استنباط المفاهيم، حيث استخدم أرسطو منهاجا وصفيا استقرائيا بينما استخدم أفلاطون منهاجا تأمليا (ينظر شكري ص 24)

2- المبادئ (المفاهيم):

(أ) طبيعة الشعر:

- المحاكاة جوهر الشعر:

يستخدم أرسطو مصطلح المحاكاة بمفهوم مختلف عن المفهوم الذي قال به أفلاطون. ومعنى المحاكاة والتقليد في الفن والشعر عند أرسطو هو: تصوير الحياة الإنسانية وليس محض تصوير لمظاهر الطبيعة، (وهنا موطن الاختلاف بينه وبين أفلاطون: الفن صورة مزينة وتشويه للحقيقة الخالصة في عالم المثل وصورة مرآوية لمظاهر الطبيعة)، ويمكن شرح فكرة المحاكاة عند أرسطو من خلال المحاور التالية:

1- تصوير الممكن وتكملة للنقص الموجود في الواقع وليس مطابقة للواقع:

الشعر ليس محض محاكاة لما هو كائن، بل هو محاكاة (ما يمكن أن يكون، أو ما ينبغي أن يكون بالضرورة أو الاحتمال) (الماضي، ص25). وهو ما يوصف ب: (المستحيل الممكن) فمثلا الشاعر لا يحاكي أفعال الناس كما هي، فقد يصورها أفضل مما هي عليه أو أسوأ مما هي؛ (فالطبيعة ناقصة والفن يُتمّ ما في الطبيعة من نقص...) الشعر مثاليّ وليس نسخة طبق الأصل عن الحياة الإنسانية (ص25)

2- المحاكاة تكملة للواقع وليس شذوذا عنه:

وهذا يعني أن الشعر قد يتجاوز الواقع أو يتعالى فوق الطبيعة، ولكن هذا محكوم بقوانين الطبيعة والواقع نفسه. والتي على الشاعر أن يتقيد بها في محاكاته، فإذا صور الشاعر واقعة ما، (وإن لم تكن قد وقعت فعلا فهي لابدّ قادرة على الإقناع بإمكان حدوثها) (ص 26) أي أن تكون موضوعا معقولا يقبل التصديق لأنها لا تتعارض مع القوانين.

- مثال:

- في مسرحيّة (عطيل) لشكسبير، عطيل ليس تصويرا لرجل واقعي لأنه لم يوجد فعلا، لكنه محاكاة وتقليد لموضوع جوهري كلي وعام وهو معنى (الرجل).

- في (ذرع أخيل) لهوميير تقليد أو محاكاة الأديب لـ: (ذرع أخيل) الذي ليس له وجود حقيقي في التاريخ، لأن ذرع أخيل موضوع من نسج الخيال، إلا أن هذا الذرع ليس مقطوعا عن العالم الواقعي فهو تقليد للذرع الذي نعرفه في الواقع.

ومن هذا المنطلق يعدّ الشاعر صانعاً لأنه يصنع واقعا لم يوجد من قبل كما إنه مقلد لأنه يصنع واقعه بناء على ما هو موجود في الواقع.

3- تصوير أفعال الناس:

الشاعر لا يحاكي فقط الأشياء ومظاهر الطبيعة، بل يحاكي الأفعال الإنسانية (مشاعر وأفكار وعواطف). ويقصد أرسطو محاكاة فعل الشخصية وليس محاكاة للشخصية أو تصوير صفات وطبائع الشخص:

(التراجيديا ليست محاكاة للأشخاص بل للأعمال والحياة، وللسعادة والشقاء، والسعادة والشقاء هما في العمل (...). فالتمثيل إذن لا يقصد إلى محاكاة الأخلاق ولكنه يتناول الأخلاق من طريق محاكاة الأفعال، ومن ثمّ فالأفعال والقصة هي غاية التراجيديات والغاية هي أعظم كل شيء ثمّ إنك لا تجد تراجيديا قد خلت من محاكاة فعل، ولكنك قد تجد تراجيديا خالية من محاكاة الأخلاق) (ص27) لأنّ الأفعال والحركة هي التي تحقق مصير الناس إلى سعادة أو إلى شقاء وهذا النص يوضّح لنا الفكرة:

(الشخصية المسرحية تمثّل لنا الصفات ولكننا لا نسعد ولا نشقى إلا بالحركة أي بالأعمال والأحداث، وعلى ذلك لا نريد من المسرحية أن تمثل لنا الصفات (...). إننا نريد منها أن تتحرك، أن تعمل وفقا لهذه الصفات، والشخصية تُفهم منة خلال الحركة وهي متضمنة فيها) (فن الأدب، المحاكاة: ص96، نقلا عن الماضي: ص28)

- مثال: حين يصور الشاعر حياة البطل الملحمي، فهو لا يصوّر طبيعة أو صفة الشجاعة التي يتميز بها البطل بل يصور صفة الشجاعة من خلال أفعال هذا البطل وحركيته المشهودة في المكان والزمان والتي تتمثل في صورة حبكة فنية تراجيدية

4- تصوير المعاني الكلية:

الشعر تصوير للمعاني الكلية أي ما هو جوهرى وعام وليس تصويرا للواقع نفسه. أو للأشخاص عينهم. فمثلا مسرحية عطيل محاكاة للرجل وهو المعنى الكلي الذي يشترك فيه كل رجل وليس تصويرا لشخصية عطيل بحدّ ذاته.

- الطبيعة الفلسفية للشعر (المنفعة والمتعة):

يرى أرسطو على خلاف أستاذه أفلاطون أن الشعر ذو طبيعة فلسفية بقدر ما هو ذو طبيعة جمالية. (وذلك لأنه يميل إلى قول الكليات الفلسفية وليس الجزئيات التاريخية)

(ب) نشأة الشعر:

على خلاف ما ذهب إليه أفلاطون والذي أرجع الشعر من حيث أصله ومصدره ونشأته إلى قوى فائقة للطبيعة البشرية (الوحي والإلهام)، يرى أرسطو أن الشعر مرده إلى الفطرة الإنسانية فهو (مرتبط بالطبيعة الإنسانية، فما يولد الشعر إنما هو غريزة المحاكاة وغريزة حب الوزن والإيقاع) (ص30) وهو نابع من حب المعرفة والاستمتاع بها.

(ج) وظيفة الشعر:

عني أرسطو بالنظر في وظيفة الشعر، وتأثيره في جمهور المتلقين، ويرى أرسطو على خلاف أستاذه أفلاطون، أن التراجيديا (تتمى عاطفتي الشفقة والخوف لكنها تجعل المشاهدين أكثر قوة من خلال (التطهير)، فعند مشاهدتنا لتراجيديا (أوديب ملكا) مثلا، نشعر بالشفقة على البطل لأن المأساة التي حلت به لا يستحقها كما أننا نشعر بالخوف لأن ما حدث للبطل قد يحدث لنا ومن خلال الشفقة والخوف تتطهر عواطفنا. تتيح التراجيديا تصريف العواطف المكبوتة من خلال البكاء في التراجيديا والضحك في الكوميديا، وهو ما يحقق للمشاهد توازنا انفعاليا عاطفيا وسلوكيا، وهو ما يسميه أرسطو (التطهير النفسي).

4- المرجعية الفلسفية ومذهب الفن الواقعي المثالي:

يستند أرسطو إلى الفلسفة الواقعية المثالية ويتبنى مذهب الجم بينع المتعة الجمالية في الشعر والحقيقة الفلسفية والمنفعة الأخلاقية معا.

